الفصل الثالث

المراحل التاريخية

تعتبر المرحلة الأولي في تاريخ البدو هي الاستيلاء الحقيقي علـى مـصر، فهي تبدأ من الفتح الذي حققه جيش عمرو بن العاص، وتستمر طوال الفترة التـي كانت تحكم فيها مصر بواسطة حاكم من أصل عربي أو حتى بدوي، أي إلى عـام (٢٣٨)هـ - (٨٥٢م).

فقد كان هذا عصر دخول القبائل بكثرة، وفترة إقامتهم واختيارهم لمنـاطق نزولهم عن طريق الارتباع، تلك الرحلة الربيعية التي وضع نظامها عمـرو بـن العاص؛ لكي يوفر لبدو الفتح وقتاً سنوياً يقضونه في الحياة البدوية.

وهو كذلك العصر الذي كان فيه البدو يستدعون من طرف الوالي، إما مـن أجل أن يكونوا بجواره إذا كان الأمر يتعلق بأهله وعشيرته، وإما من أجل تزويده بالرجال المخلصين الذين يمكنهم أن يعتمد عليهم في تولي مهام الإدارة في البلاد.

وهذا يعني أن البدو كانوا متفقين تماماً مع الولاة الذين حكموا مـصر مـن طرف الخلفاء الراشدين، وكانت طاعتهم لهؤلاء الولاة هي طاعة صارمة. فمـثلاً كان الحَظْر الذي ضُرِبَ على هؤلاء البدو والقاضي بألا يمارسوا الزراعة، كـان هذا الأمر ساري المفعول طوال قرنٍ لاحقٍ لصدوره، ولم يرفع هـذا الحظـر إلا حوالي عام (١٠٩)هـ - (٧٢٧م) بأمر عامل الخراج في مصر، عبيـد الله بـن الحبحاب القيسي، ولحظتها ابتدأ بدو مصر- وخاصة القبائل العدنانية التي كانت قد وصلت حديثاً- في فلاحة التربة، وإن هذا لحدث هام في تاريخهم، فلقد عرف البدو من واقع هذه الحقيقة ظروفاً صالحة لاستقرارهم، أو على الأقل نوعاً من الإثـراء الذي سيشتهرون به بمرور الوقت، والأمويون أنفسهم لم يترددوا في مـنح البـدو المساعدات المالية لكي تنجح مهمتهم الزراعية.

ولكن من هنا ستبدأ المناوشات التي وقعت بين البدو والسلطة بخصوص موضوع الضريبة على الأرض المنزرعة؛ فإن الخلفاء العباسيين على العكس من سابقيهم من الأمويين سيطالبونهم بدفع ضريبة عقارية على الأراضي التي منحت لهم ليزرعوها. ومن هنا جاءت القائمة الطويلة من القلاقل التي كان سببها هؤلاء البدو الذين رفضوا الوفاء بهذه الضريبة.

ويمكن أن نستشف المكانة التي احتلها البدو في تنظيم الدولة الإسلامية بمصر في القرنين الأولين من الهجرة، مما اتخذ معه من تدابير ضدهم، ابتداء من اللحظة التي حاولت فيها أجناس أخري أن تحل محل العرب في ممارسة السلطة، وابتداء كذلك من وقت أن أصبحت فيه العائلات الحاكمة ليست من العرب الخلص.

ويعتبر الخليفة المعتصم، الذي كانت والدته من أصل تركي، هو أول من أمر في عام (٢١٧)هـ - (٨٣٢م) واليه بقطع العطاء عن بدو مصر، وشطب أسمائهم من سجلات الديوان. وفي الوقت نفسه، عمل على التقليل من عدد العرب في الجيش، وإحلال الترك محلهم. وأخيراً، وفي عام (٢٣٨)هـ - (٨٥٢م) عين آخر وال عربي في مصر، وسيخلفه وال آخر من أصل فارسي، وبذا أصبح البدو لا يحكمون بعد ذلك بواسطة فرد من أبناء جلدتهم، وإلي حين وصول الفاطميين إلي قاهرتهم. وهنا تنتهي أول فترة في تاريخ القبائل العربية في مصر.

وخلال المائة والعشرين عاماً التي تلت - أي إلي تاريخ استيلاء الفاطميين على السلطة في عام (٣٥٨)هـ. (٩٦٩م)- فإن المعلومات النادرة التي وصلتنا عن بدو مصر، تشير إلي أنهم قد عاشوا حياتهم على هامش السلطة؛ فقد كانت القبائل يزداد عددها وتغتني، ولكنها لا تبحث إلا عن المغامرة، فنرى أن بني مدلج يستولون على جزء من الدلتا والإسكندرية نفسها حوالي عام (٢٥٣)هـ- (٨٦٧م).

كما أعد أحد العمريين حملة تأديبية ضد قبائل البجة في النوبة"غضباً لله وللمسلمين"، وهي إغارة لم يتحرك لها ابن طولون الذي كان يحكم مصر في ذلك الوقت إلا بعد فوات الأوان، هذا بالرغم من أن قبائل بدوية كثيرة ومن أشدها بأساً،

كانت قد اشتركت في هذه العملية، وكان من بينها على وجه الخصوص بنو ربيعة الذين تمكنوا على إثر هذه الواقعة من عقد اتفاق مع الفريق المسلم من قبائل البجة مكنهم من فرض سطوتهم على منطقة المناجم بأجمعها، وهي منطقة وادي العلاقي، كما أتاح لهم كذلك- وعلى المدى الطويل- تأسيس إمارة عربية تضم أسوان.

إننا إذا أردنا أن نلخص تاريخ بدو مصر إبان الحكم الفاطمي، فيمكن القـول بأنهم كانوا يحظون برضا، وأنه على العكس مما سيقال عنهم تحت حكم المماليك، فإن مركزهم كان قد تثبت وزادت أهميتهم، فهم يحيطون بالوزراء وحتى بالخليفـة نفسه. وإذا كان علينا أن نبرهن على هذا، فلنذكر بخصوص مركز البدو ومكانتهم ما حظي به رئيس قبيلة بني ربيعة الذي أصبح يعرف"بكنز الدولة"، وعرفت قبيلته بالتالي بقبيلة بني الكنز. هذا دون أن يغيب عن أذهاننا ظهور الشخصية الخرافيـة لأبي زيد الهلالي، هذا البطل الذي اشتهر بين فلاحي مصر والسودان. أمـا عـن أهميتهم في الحياة العامة فإنها غالباً ما تظهر في كل مرة يلجأ فيها فريق من الفرق المتنازعة إلي القبائل البدوية لكي يعزز أنصبته من النجاح؛ ويبدأ هذا فعلاً من أيام الحاكم بأمر الله، عندما رأينا أبا ركوة، الذي استنجد ببدو البحيرة وضـمهم إلـي صفوفه واستمالهم في محاولة إحياء الخلافة الأموية، فطرد الفاطميين.

ولقد ثبت كذلك أن البدو كانوا يحيطون بالخليفة. فقد رأينا مثلاً أن واحداً من الموكبين اللذين كانا يرافقان الحاكم بأمر الله عند خروجه واختفائه آخر مرة، كـان مكوناً من بدو بني سويد. كما رأينا كذلك أن بدوية من بني طَيِّئ قد تزوجت الخليفة الآمر، وأن هذا الأخير لكي يسترضيها، شيد لها قصر الهودج؛ تمشياً مع رغباتهـا البدوية. وأخيراً كثيراً ما اختير الوزراء من أبناء القبائل البدوية كما حدث بالنـسبة لشاور السعدي الذي ينتمي إلي سعود بني جذام.

وإذا أردنا أن ننظر إلي الأمور بوجهة نظر عامة، فيمكننا القول بأنه طالمـا كان سلطان الخلفاء الفاطميين في عنفوانه وقوته، فإن البدو كانوا بجانبهم. ثم حدث بعد ذلك وعلى التحديد بعد موت اليازوري في عام (٤٥٠)هـ. ثم أصبحت القبائل

تستخدم في تعزيز النضال الناشب بين الطامعين في الوزارة؛ وكذلك ابتـداء مـن اللحظة التي حشد فيها ابن مصال البدو لتكوين فريق يدين له بالطاعة مباشرة دون طاعة سيده الخليفة الظافر، فإن البدو أصبحوا يساقون إلي جانب هؤلاء الطـامعين سواء ضرغام، أو شاور السعدي، بدلاً من انحيازهم إلي الخليفة الذي كانت حياتـه تدور بعيداً عن الممارسة الفعلية للحكم.

وكنا نود أن نعرف ما إذا كان استعمال هؤلاء البدو بواسطة الفرق المختلفة إنما ترجع أسبابه إلي ثرواتهم، أم إلي قوتهم الحربية، أم أن آراءهـم ونـصائحهم كانت لها واقع وقيمة في تقرير أمور البلاد، ولكن الوثائق التي تحت أيدينا – ومـا هي عليه حتى الآن– لا تسمح لنا إلا في القليل النادر، بأن نجيب على هذه الأسئلة.

لقد عرف البدو خلال حكم الفاطميين لمصر الذي دام حـوالي قـرنين أوج عنفوانهم، فقد وصل توسعهم إلي أقصاه، كما أن عدد القبائل كان دائماً في ازديـاد نتيجة كثرة دخولهم إلي البلاد بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم، في الوقت الذي قلّت مرات مغادرتهم للبلاد – مع ما كانت تحمله هذه المغادرات القليلة من نتـائج تاريخية هامة، كما حدث في حالة بني هلال وبني سليم. أما عن ثراء البدو فيبـدو أنه كان ثراء فاحشاً، فقد كانوا يكيلون ذهبهم بالقدح.

وكان اضمحلال الفاطميين هو كذلك اضمحلال للبدو. فعنـدما فقـدت هـذه الأسرة الفاطمية الحاكمة سلطانها في مصر، فإن البدو سيفقدونه أيضاً. وبذا تنتهي الفترة التي كان فيها بدو مصر في ذروة ازدهارهم.

إن إحساس البدو بالآثار الناجمة عن وصول سلطة من جنس مخالف للجنس العربي إلي مصر لن يتم إلا مع بعض التأخير. والواقع أن حكم الأيوبيين في تاريخ بدو مصر لا يمكن تشبيهه إطلاقاً بما ستكون عليه الـسيطرة الـشرسة للمماليـك بالنسبة لهم. وصحيح أن الأيوبيين ينتمون إلي الجنس الكردي، وأنه بناء على ذلك فإن المشاغبات بين السلطة والبدو لم تعد من"الأمور العائلية"التي كانت تتسم بهـا العلاقات بين البدو والفاطميين.

وصحيح كذلك أن صلاح الدين قد قمع هؤلاء البدو بكل شدة، ولكـــن وقفـــة صلاح الدين ضد البدو لم تكن على ما يبدو تحدوها سوى الضرورة التـــي كانـــت تمليها عليه ظروف انتصاراته على الفرنج لإقامة دعـــائم حكمـــه وإعـــلاء شـــأن الإسلام. وكان عليه لكي يصل إلي هذا الهدف المزدوج، تحييد البدو ومنع تأثيرهم، فقد كان للبدو اتصالات مسالمة أكثر من اللازم مع الصليبيين. ومن جهة أخرى فإن شعورهم وولاءهم للفاطميين ربما قادهم إلي الانقلاب على السلطة التي كانت حديثة عهد بالبلاد، وهو الأمر الذي حدث على أيدي بني الكنز في بداية عصر صـــلاح الدين، ومن هنا جاءت أهمية أن يتفوق الأمويون حربياً على المتمردين من البـــدو وإقصائهم بعد ذلك – وبأكبر قدر مستطاع– من صفوف جيوشهم التي كانوا يعولون عليها في مواجهة الصليبيين؛ وكذلك بمنع وقوع أي نوع من التعاون الصريح بين البدو والصليبيين، وذلك إما عن طريق نقل القبائل المتورطة من أماكنها، وإما عن طريق مصادرة شحنات القمح من محاصيل البدو، حتى لا يتمكن هؤلاء الآخـــرون من الذهاب لبيعه إلى الفرنج.

هذا وقد قامت علاقات طبيعية بين السلاطين الأيوبيين الذين حكموا مـــصر بعد صلاح الدين وبين البدو الذين لم يتمكنوا مع ذلك وإلى غير رجعة أن يتبـــوّءوا مركزهم الذي منحهم إياه الفاطميون طواعية، وعن طيب خاطر، وخاصة إلى من هم جديرون بذلك من بين هؤلاء البدو. ولكنهم في الوقت نفسه لم يعاملوا على أيدي الأيوبيين"كخارجين على القانون"كما سيحدث لهم تحت حكم المماليك. ولـــم يقـــف الأمر عند هذا الحد، فقد كان العصر الأيوبي ومعاركه الأولى ضد البدو عاملاً من عوامل التقريب بين البدو والسكان المصريين الذين ساعدوهم ضـــد ســـادة الـــبلاد الجدد.

وأخيراً، وبعد أن تقبل البدو هؤلاء السادة الجـــدد، فإننـــا نـــراهم يحيطـــون بالسلطان، ويرتبطون به بعلاقات الصداقة، إما بصفة شخصية أو علـــى مـــستوى القبيلة بأجمعها، كما كان الحال بالنسبة للجعافرة من آل جعفر الطيار، كما نـــراهم

أيضاً وهم يشاركون مشاركةً فعالةً في المعارك التي استمر الأيوبيون في شنها ضد الصليبيين. وهناك دلالة لها مغزاها فيما يتعلق بالأيوبيين، فقد سعوا إلـى وضـع شجرة نسبهم ليظهروا بها بمظهر المنحدرين من أصل عربي.

وعلى هذا، فقد كان العصر الأيوبي بالنسبة للبدو فترة انتقال، وهى وإن لـم تكن فترة مجيدة كما كانت بالنسبة لهم في فترة الحكم الفاطمي، فإنها على أي حال لم تكن مختلفة اختلافاً كلياً عن سابقتها، ولكن القطيعة سـتحدث بالـضبط عنـدما يستولي المماليك على حكم مصر.

فما أن تولى المعز أيبك التركماني عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) مقاليـد الأمـور كأول سلطان من السلاطين المماليك في مصر، حتى تجمع البدو ضده، وضد هويته وضد ما كان يمثله، فالبدو ينكرون على رقيق من الأرقاء أية إمكانية في قيـادتهم، في قيادة هؤلاء البدو الذين كانوا من العرب كريمي النسب والمحتد، وهم في حقيقة الأمر قد اعتادوا على شراء الرقيق وبيعه أكثر من اعتيادهم على طاعة أي فـرد منهم. لقد سمحت لهم الأخلاقيات البدوية في تقبل الأيوبيين وهم الغرباء حقاً ولكنهم كانوا رجالاً أحراراً. وجعلت هذه الأخلاقيات نفسها من الصعب عليهم الخـضوع للمماليك، مهما كان هؤلاء الأرقاء المماليك هم سادة مصر. ومن هنا اتحدت القبائل للإعداد للمعركة ضد المماليك. فمن ذا الذي سيترأس هذه الحركـة؟ فـي الوجـه البحري، قادت هذه الحركة قبيلة بني سنبس[1]، هؤلاء البدو الذين قدموا مؤخراً إلى مصر في عصر المستنصر الفاطمي. أما الوجه القبلي، فقـد تولـت القيـادة فيـه الجعافرة، هذه القبيلة التي غمرها الأيوبيون بأفضالهم وبحظوتهم، ولقد اجتمعت كل القبائل الأخرى وتعصبوا حول هاتين القبيلتين.

---

(١) هم بطن من طيئ من القحطانية، منهم طائفة سكنوا العراق، وطائفة سكنوا دمياط بمصـر."نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، القلقشندي، ط. دار الكتب العلمية، بيـروت ١٩٨٤م، ص ٢٧٣، وكحالة:"معجم القبائل العربية"، ٢/ ٥٥.

واختار البدو رئيساً لهم في شخص الشريف حصن الدين ثعلب، الـذي قـال عنه القلقشندي: إنه قد سخط على سلطنة هؤلاء المماليك، وسمت نفسه إلى السلطنة فأعلن عندئذ أن البدو هم أصحاب البلاد وأنهم أحق بالسلطة من المماليك.

* * * * * *